

نهر دافق لا تقاد تمسك بمائه.. محمد الماجد سوريانية الصورة في معجم الصحراء.

حينما أقرأ الشاعر محمد الماجدأشعر أنني من فقراء اللغة.

شاعر لافت في أدائه وفصاحته ومعجمه الذي لا يشبهه أحد، وقد لا يقوى عليه أحد.

نعم له مع الشاعر محمد الثبيتي تناغم وتماهٍ، وتجاور وتحاور في ملامح المعجم والأداء، ولكنه يمثل ذاته بأسلوبه وأخيالته، في مجموعاته الثلاث: مسند الرمل، وكأنه هو، وأسفار ابن عواض.

ذلك المعجم الثري المتفرع والموهي، الذي يحييك إلى الصحراء بكل تفاصيلها، وصفائها وعدايتها.

تلك الصياغات المتنوعة، وذلك التراوح الذي لا يفتأ بين الجمل الخبرية والجمل الإنسانية، المتقنة السبك، والمحكمة الصياغة، والتي رغم طولها لا ترهل فيها ولا نفور، ولا ضعف فيها ولا إلقاء، والمحملة بالصور المتفرعة والمتحركة بألوان وظلال لم نعهد لها، ولن نستوعبها ما لم نعش في الصحراء ونكتو بحرارة لهيابها، وزمهرير بردها، وشطف عيشها، ووجل مخاطرها، وسحر هضابها وصفائها.

قصائد في غالبها تعليمة، ولكنها ملتزمة بقاافية ترن بين حناياك بصداتها المجلجل الذي يوقظ شعورك فتلتفت مندهشاً من عذوبة ما سمعت، وغرابة حركة شعورك وسكون مشاعرك!.

لاحظ هذه الوقفات التي هي بمثابة استراحة وابتداء، وبجنس بديع، وجرس موسيقي أخذ، اسمعه وهو في رحلة "الكهربان"

"الكهربان يضيء ليل المجدلية

والبخور يثم سرب الراعيات من النصارى في الأحد°

وتَنَدْ زَادْ°

...

وأَعْدُّ عَادْ°

..

وأَمْدُّ مَادْ°

..

يَخِدُّ خَادْ°

فنقوم من طربٍ على ساقٍ لنغسل بالزلال وبالزبد"

رغم هذه التراكيب الموسيقية المدهشة إلا أنك حينما تسمع الماجد تجد نفسك أمام شاعر بصري بامتياز، فهو يعبر عن كثير مما يراه، وقليل مما يسمعه، تسارع أحداث ولقطات خاطفة متتابعة حيناً، ومتقطعة حيناً، فهي" تلقائية نفسية خالصة، من خلالها يمكنه التعبير عن واقع اشتغال الفكر" لا تقاد تمسك بخيط

يربطها، فهي تتبعك وتربك، ولكنها تمنعك، بذلك التصوير الحركي والمزدحم بالجنسات، والانزيادات، والتجاذبات الحوارية، وليس بالضرورة أن يكون كما هو واقع، بل كما يراه، وهذا هو الفن المتوازن.

وهذا الإغراق في اللغة وصورها المتکاثرة النغم، تشعر وأنت تلقاءه وكأنك أمام هلوسة متخرجة افتتح بعد حصار بإيقاع (سورياطي) متتابع الجرس، فتأن النغم، متجدد الصور، متوازن الأثر، وبحضور لافت للقاقة الساكنة في الكثير من نصوصه، ذلك السكون الذي لا يحييك إلا لحركة الخيال لأبعد ما يمكن أن يصل إليه من مدى. فكيف جاء؟

"جئت من نافلة الموج بخيط

آخر الملح على أبواب طيٌّ

أعقد العقدة لا أدرى

بأيِّ سوف أشفى من لُميٍّ

أوصد الباب ولما أن تهيات له لم يتهيٍّ.

مع الماجد أنت أمام تحد في ثقافة الصحراء، وثقافة شعر الفطرة وشعر البدايات التي تكشف فيه وتقطر حتى تلألأ بهذا الجمال، بالرغم من هذا التجاذب الأنثيق فهو بعيد نسبياً عن المشاعر المتضارعة التي يعيشها أبناء الصحراء.

أتلقي الماجد أتماهى مع صوره أنتقل فجأة من "سنام البيد" إلى "عيون الماء" و"أجنحة المجامر" و"بين الخيام"

"ثم اختلفنا أيُّنا يرد المشقر

واختلفنا أيُّنا يعشى القطيف".

هذا الشاعر المغرم حد الفناء بالصحراء لا ينفك عنه معجمها حتى في أجمل إخوانياته، ففي قصيدة "أسفرت عن جمر" في رفيق دربه الشاعر الملحق شفيق العبادي، والتي مطلعها:

وأسفرتَ عن جمرٍ فأيقططَ نارها

وأسفرتَ عن ريحٍ فضاقت بنا معا

تجد "الجمر، النار، الريح، البيد، الوحوش، الطبيعة، القطيف، الحمى، الشيج.." مكونات صياغة إحساسه الأخرى

ربما تجد نفسك أمام نهر دافق لا تقاد تمسك بما نهيه (بمعناه) الرقرق إلا وانفلت من بين أصابعك، قد تسمعه ولا تفهمه ولكنك حتماً ستتطرف به، ستنتهي بنغم اللغة وخصوصتنا، وسيمضي بخيالك إلى أفياء لم تعهد لها، ومسارب لم تقربها، ودورب لم تشهدها.

كالموسיקה التي تستثير كواطن مشاعرك، تستعيد ذكرياتك، تجدد احتمالات مآلاتك، غير أن الماجد ينثريك بجمال معجمه، بابتكرات أسلوبه، بذلك التناغم بين حداة التركيب والأداء وتشكلات معجم اللغة ومفرداتها الثرية.

وحين تستمع الماجد تجده لا ينتمي لبيئته الضيقة التي تربى فيها في معجمه، وفي صوره، وفي لغته، فشغفه الموجه في قراءته أكثر تأثيراً.

مع تناص أسلوبي مع الشعر الجاهلي أحياناً، والنهر القرآني حيناً.

وحينما ينتقل للشعر الشعبي تلمح نغم الشاعر الكبير مظفر النواب حاضراً، فيتغير مسلك القصيدة في وحدة موضوعية واضحة، ونمو حركي متفرد، وصور ناصعة، يحيل بعضها لبعض، بشفافية الإحساس، وـ”محكمة سهل شبعاً نه برق ورعود

و وسلم

وسلم الدله و ترد اردود

دقة هيل وريحة عود

صاحب^ش خوات سهيل

ودق با بك سعد وسود

وصب يحمود

تالينا قوايل والنخيل فرهود”.

ومن جهة أخرى تلاحظ حضور الاختلاف والتفرق، وحضور الأرقام، فأنت أمام مرور، ولا وقوف، صراغ، ولا صمت، بحضور لافت لثيمة الجموع، وكأنك أمام أفلام (الأكشن).

قد تحتاج قراءة ومتابعة واسعة وعميقة للأدب الجاهلي وما بعده كي تمسك ببعض إحالات قصائد الماجد الماجدة.

معجم صراوي أصيل، وأسلوب حدا ثي بديع

متمكن من اللغة وال نحو والصرف والعروض، لا إغواء ولا إلقاء، لا اجترار ولا تكرار، ولا نزال مع:

”ليل لعوب في الممر إلى المها

وأخ له تحت الغضا

يفتض أحلام الرمال“